

## الترادف

هل نجد في اللغة ألفاظاً مترادفة في معانيها مترادفاً متكاملًا ، هذا سؤال خطر بالبال وأنا أطالع كتابين متناقضين ؛ الألفاظ الكتابية للهمذاني ، وفقه اللغة وسر العربية للتعالي .

يقول الهمذاني في مقدمة كتابه : فليست لفظة منها ، أي من الألفاظ التي جمعها ، إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المحاورة ، أما بمشاكله أو بمجانسته أو بمجاورة .

قبل أن أسأل هذا السؤال : هل تنوب في اللغة لفظة عن لفظة مناباً كاملاً ، أحب أن أشير إلى بعض ألفاظ ذكرها الهمذاني في كتابه ، فقد وقعت عيني في هذا الكتاب على باب ترادف السلب ، أشار الهمذاني إلى أنه يقال : اغتصب فلان مال فلان وسلبه . فننظر في معاني هاتين المادتين ، ذكر الفيروزبادي مادة غضب فقال : غصبه أخذه ظلماً كأغتبته ، وغصب فلاناً على الشيء قهره . وذكر مادة سلب فقال : سلبه اختلسه كاستلبه .

فالقارى يرى أن الاغتصاب يستلزم الظلم والقهر ، أما السلب فليس يستوجب شيئاً من هذين الأمرين ، وإنما يحتاج إلى الخفة والسرعة فان من جملة معاني السلب السير الخفيف السريع !

يستنتج من هذا أن سلبه لا تنوب عن غصبه نوباً متكاملًا إذا توخينا دقة التعبير . ومثل هذا الباب في الألفاظ الكتابية باب اللوم مثلاً ، فقد ذكر الهمذاني أنه يقال : لمت الرجل لوماً وفندته تفنيداً .

فالفند بالتحرريك الحرف وإنكار العقل لهرم أو مرض والخطأ في القول والرأي والكذب وفنده تفنيداً كذبه وعجزه وخطأ رأيه ، فانظر إلى اتساع معاني هذه المادة .

أما اللوم فليس فيه شيء من كل ما ذكر فقد تلوم الإنسان وليس من الضروري

أن يكون خرفاً أو ان تنكر عقله لهرم أو مرض أو غير ذلك ، فهل تقوم لفظة  
 لت الرجل مقام فنّدته اذا كنا نغني بأسرار التعبير .  
 ونقيض كتاب الهمداني كتاب : فقه اللغة ، للثعالبي ، فقد جعل لكل لفظة  
 أسرارها وروحها بحيث لا نكاد نجد في ألفاظٍ متقاربة المعاني لفظة تنوب عن  
 أختها أو تقوم مقامها .

انظر مثلاً في تفصيل أوصاف السيد ، قال الثعالبي : الخلاجل السيد الشجاع ، والهمام السيد  
 البعيد الهمة والقمام السيد الجواد والصنديد السيد الشريف ، الى آخر هذه الاوصاف .  
 فانت ترى ان لكل لفظة من هذه الالفاظ أسرارها وروحها ، فالشجاعة غير  
 بعد الهمة ، وبعد الهمة غير الجود والجود غير الشرف ، فقد يكون السيد شجاعاً  
 ولا يكون بعيد الهمة ، ويكون بعيد الهمة ولا يكون جواداً ، ويكون جواد  
 ولا يكون شريفاً .

فهل تشمل اللغة على ألفاظٍ مترادفةٍ تكامل ترادفها ، هذا ما أحببت الوصول  
 الى السوأل عنه .

\* \* \*

أناً « فنلون » في القرن السابع عشر كتابه الى « الاكاديمية » الفرنسية ، بحث  
 في هذا الكتاب عن أمور شتى ، فقد بحث عن المعجم وقواعد النحو واللغة والبديع  
 والشعر والأنواع الأدبية والتاريخ وأشباه هذا كله .

من جملة كلامه في فصل اللغة قوله : إذا فحصنا عن كثر من معاني الألفاظ فقد  
 يتبين لنا أننا لا نكاد نجد بين هذه الألفاظ لفظتين مترادفتين على وجه متكامل .  
 وقد قرأت تعليقاً على هذه العبارة لناشر كتاب « فنلون » وهو مفتش عام في  
 وزارة المعارف ، جاء فيه اننا اذا لم نجد لفظتين مترادفتين فهذا سببه انه لا يمكن  
 وجود هاتين اللفظتين ، في أية لغةٍ من اللغات لانستطيع ان نشير في مختلف ألفاظ  
 هذه اللغة الا الى صلاتٍ في الترادف متقاربة لا متكاملة ، لأننا اذا ذهبنا الى أصل  
 هذه الألفاظ او اذا نظرنا في اختلاف الأشياء الدالة عليها فقد يسهل علينا ان نجد  
 فرقاً بين لفظتين نزع منها مترادفتان ، ثم أتى هذا الكاتب على ذكر طائفةٍ من

الألفاظ الفرنسية لا نجد لها نظائر في لغتنا العربية ، من حيث وجه الشبه ، لأن في اللغة الفرنسية ألفاظاً من أصل لاتيني وألفاظاً من أصل يوناني ، فاذا ذكرت لفظتان مترادفتان من هذين الأصلين المختلفين فقد يهون على الباحث ردُّهما إلى أصلهما أما نحن معاصر العرب فلم نعرف حتى اليوم أصل لغتنا العربية ، على أن أهل اللغة بحثوا عن المترادف وستأتي الإشارة إلى هذا البحث .

وقال الاستاذ « دارمستر » في كتابه الجليل : حياة الالفاظ في فصل المترادف :  
لا نجد في لغةٍ مُخلقت في أحسن تقويم مترادفات على وجه متكامل ، على أننا نجد في لغتنا الفرنسية ألفاظاً كثيرة مختلفة للدلالة على شيء واحد ، فلبعض النبات مثلاً أو لآلة من الآلات ، أو لمحصول صناعي ، خمسة أو ستة أو ثمانية أسماء ، ولكن هذه الاسماء إذا كانت مستعملةً فإن استعمالها لا يقع إلا في أماكن متفرقة ، أو في صناعات متباينة ، إذ إن كل طائفة من الرجال ليس لها الالفة واحدة للدلالة على الشيء الواحد ، على أن هذه الأسماء المختلفة تدل على صفات مختلفة سميت الأشياء بها في أصل تسميتها ، وفعالاً لا يمكن أن يكون في اللغة العامة مترادفات متكاملة ، إلا إذا كان أحد اللفظين المترادفين أقل استعمالاً من الآخر ، وإذا كانت اللفظان مستعملين فإن ترادفهما لا يطول زمنه لأن فكر الإنسان لا يريد أن يزججه بحمل لا فائدة فيه ، فهذا الفكر إما أن يطرح في النهاية أحد اللفظين وإما أن يستعمله .

\* \* \*

لقد بحث علماء لغتنا في المترادف البحث نفسه ؛ ولم يكن لفنهم فيه أقل من تفنن علماء لغة الغرب ، فقد ذهبوا في المترادف مذاهب شتى أشار إليها السيوطي في المزهري ، فمنهم من قال ومن الناس من أنكروا المترادف وزعم أن كل ما يظن من المترادفات فهو من التباينات ، فقد يسمى الشيء الواحد بالاسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام ولكن الاسم واحد وهو السيف وما بعده من الألقاب صفات ، فكل صفةٍ منها فمعناها غير معنى الأخرى .

وخالف في ذلك قوم فزعموا أن هذه الاسماء وإن اختلفت ألفاظها فإنها ترجع إلى معنى واحد وذلك قولنا : سيف وعصب وحسام .

وقال آخرون : ليس منها امم ولا صفة الا ومعناه غير معنى الآخر ، وكذلك الأفعال ، ففي قعد معنى ليس في جلس ، وكذلك القول فيما سواه مثل مضى وذهب وانطلق ورقد ونام وهجم وغير ذلك .

فأنت ترى ان فريقاً من علماء لغتنا أنكروا المترادف كما أنكروه فريق من علماء الغرب ، وكيف يكون السيف والصمصام مترادفين تكامل ترادفهما ، فن أين جاءت هذه المادة : الصمصام ، يقال : صمم السيف كصمصم اصاب المفصل وقطعه او طَبَّقَ ، ومنهم من قالوا : ان التصحيم هو المضي في العظم وقطعه ، والتطبيق هو اصابة المفصل وقطعه ، ومنه : والصمصام السيف لا ينثني ، فلنظة الصمصام لا تقوم مقام السيف ، فان لها صفة خاصة : السيف الذي لا ينثني ، واذا زعمنا ان هاتين اللفظتين مترادفتان ، فهل تنوب الواحدة عن أختها ، من كلام الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها ، فكيف يكون وقع كلامه لو قال : كان عبد الملك بن مروان صمصام قريش ، أفلا نجد ان لفظه السيف اذا استعملت في موضعها فلا تقوم مقامها لفظه أخرى من أخواتها القريبة منها مثل الصمصام . وكذلك القول في كثير من الألفاظ التي زعموا انها مترادفة .

ففي كل اللغات الفاظ لم بتكامل ترادفها ، فان بعضها ينفصل عن بعض بشيء من الاختلافات والبراعة كل البراعة في تمييز هذه الألفاظ وفي استعمالها في المواضع المناسبة وهذا مانسميه : فقه اللغة ، وكلام ملكت اللغة ألفاظاً كثيرة للافصاح عن اختلافات الفكرة الواحدة او العاطفة الواحدة كلما ازداد غناها ، فاذا عرضت لنا مثلاً فكرة السيادة ، وكان لهذه الفكرة الواحدة أوصاف مختلفة كالشجاعة وبعد الهمة والجود والشرف استطاعت لغتنا ان تفصح عن كل صفة من صفات هذه السيادة وهذا من كمال حسن اللغة ، اما المترادف المتكامل فلا أثر له في اللغة ، فلعل لفظه سرها وروحها .

شفيق جبري